

محاضرة رقم ٥	
التربية للعلوم الانسانية	الكلية
علوم القرآن والتربية الإسلامية	القسم
علم التفسير	المادة باللغة العربية
Science of interpretation of the Qur'an	المادة باللغة الانجليزية
الثانية	المرحلة
٢٠٢٢ - ٢٠٢٣	السنة الدراسية
الأول	الفصل الدراسي
الخامسة	المحاضرة
نشأة التفسير	العنوان باللغة العربية
The origins of interpretation of the Qur'an	العنوان باللغة الانجليزية
الاتقان في علوم القرآن، للسيوطي	المصادر والمراجع
مباحث في علوم القرآن، صبحي صالح	
التفسير والمفسرون، للذهبي	

المحاضرة : الخامسة

نشأة التفسير

التفسير مرّ بمراحل عدة منذ عصر النبوة إلى عصرنا الحاضر، وقد تميز في كل مرحلة بمزايا

خاصة، وفيما يأتي بيان هذه المراحل:

المرحلة الأولى: التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين أو ما تسمى (

مرحلة التأسيس).

بدأت هذه المرحلة بتفسير النبي محمد صلى الله عليه وسلم، الذي يعد أول مفسر للقرآن الكريم، وكان طبيعياً أن يفهم النبي صلى الله عليه وسلم جملة وتفصيلاً، إذ تكفل الله تعالى له بالحفظ والبيان: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: ١٧-١٩] ، كما كان طبيعياً أن يفهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم القرآن في جملته، أي بالنسبة لظاهره وأحكامه، أما فهمه تفصيلاً، ومعرفة دقائق باطنه، بحيث لا يغيب عنهم شاردة ولا واردة، فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن، بل لا بد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيما يشكل عليهم فهمه، وذلك لأن القرآن فيه المجمل، والمشكل، والمتشابه، وغير ذلك مما لا بد في معرفته من أمور أخرى يُرجع إليها.

ولا أظن الحق مع ابن خلدون حيث يقول في مقدمته: "إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه"، نعم لا أظن الحق معه في ذلك، لأن نزول القرآن بلغة العرب لا يقتضى أن العرب كلهم كانوا يفهمونه في مفرداته وتراكيبه، وأقرب دليل على هذا ما نشاهده اليوم من الكتب المؤلفة على اختلاف لغاتها، وعجز كثير من أبناء هذه اللغات عن فهم كثير مما جاء فيها بلغتهم، إذ الفهم لا يتوقف على معرفة اللغة وحدها، بل لا بد لمن يفتش عن المعاني ويبحث عنها من أن تكون له موهبة عقلية خاصة، تتناسب مع درجة الكتاب وقوة تأليفه.

تفاوت الصحابة في فهم القرآن:

ولو أننا رجعنا إلى عهد الصحابة لوجدنا أنهم لم يكونوا في درجة واحدة بالنسبة لفهم معاني القرآن، بل تفاوتت مراتبهم، وأشكل على بعضهم ما ظهر لبعض آخر منهم، وهذا يرجع إلى تفاوتهم في القوة العقلية، وتفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، وأكثر من هذا، أنهم كانوا لا يتساوون في معرفة المعاني التي وُضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفي معناه على بعض الصحابة، ولا ضير في هذا، فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم، ولم يدع أحد أن كل فرد من أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها.

ومما يشهد لهذا الذي ذهبنا إليه، ما أخرجه أبو عبيدة في الفضائل عن أنس: "أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: {وَفَاكِهَةٌ وَأَبَّاءٌ} .. [عبس: ٣١] فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟. ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر.

وما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: "كنت لا أدري ما {فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ} حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، والآخر يقول: أنا ابتدأتها."

الحق أن الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - كانوا يتفاوتون في القدرة على فهم القرآن وبيان معانيه المرادة منه، وذلك راجع - كما تقدّم - إلى اختلافهم في أدوات الفهم، فقد كانوا يتفاوتون في العلم بلغتهم، فمنهم من كان واسع الاطلاع فيها مَلَمّاً بغريبها، ومنهم دون ذلك، ومنهم من كان يلازم النبي صلى الله عليه وسلم فيعرف من أسباب النزول ما لا يعرفه غيره،

أضف إلى هذا وذاك أن الصحابة لم يكونوا في درجتهم العلمية ومواهبهم العقلية سواء، بل كانوا مختلفين في ذلك اختلافاً عظيماً.

المفسرون من الصحابة

اشتهر بالتفسير من الصحابة عدد قليل، قالوا في القرآن بما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة أو بالواسطة، وبما شاهدوه من أسباب النزول، وبما فتح الله به عليهم من طريق الرأي والاجتهاد.

وقد عدَّ السيوطي رحمه الله في "الإتقان" من اشتهر بالتفسير من الصحابة وسماهم، وهم: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، رضى الله عنهم أجمعين.

وهناك من تكلم في التفسير من الصحابة غير هؤلاء: كأنس بن مالك، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو ابن العاص، وعائشة، وغير أن ما نُقل عنهم في التفسير قليل جداً، ولم يكن لهم من الشهرة بالقول في القرآن ما كان للعشرة المذكورين أولاً، كما أن العشرة الذين اشتهروا بالتفسير، تفاوتوا قلة وكثرة، فأبو بكر وعمر وعثمان لم يرد عنهم في التفسير إلا النزر اليسير، ويرجع السبب في ذلك إلى تقدم وفاتهم، واشتغالهم بمهام الخلافة والفتوحات، أضف إلى ذلك وجودهم في وسط أغلب أهله علماء بكتاب الله، واقفون على أسراره،

عارفون بمعانيه وأحكامه، مكتملة فيهم خصائص العروبة، مما جعل الحاجة إلى الرجوع إليهم في التفسير غير كبيرة.

أما عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه، فهو أكثر الخلفاء الراشدين رواية عنه في التفسير، والسبب في ذلك راجع إلى تفرغه عن مهام الخلافة مدة طويلة، دامت إلى نهاية خلافة عثمان رضى الله عنه، وتأخر وفاته إلى زمن كثرت فيه حاجة الناس إلى من يُفسّر لهم ما خفي عنهم من معانى القرآن، وذلك ناشيء من اتساع رقعة الإسلام، ودخول كثير من الأعاجم في دين الله، مما كاد يذهب بخصائص اللغة العربية.

وكذلك كثرت الرواية في التفسير عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبيّ بن كعب، لحاجة الناس إليهم، ولصفات عامة مكّنت لهم ولعليّ بن أبي طالب أيضاً في التفسير، هذه الصفات هي: قوتهم في اللغة العربية، وإحاطتهم بمناحيها وأساليبها، وعدم تخرجهم من الاجتهاد وتقدير ما وصلوا إليه باجتهدهم، ومخالطتهم للنبي صلى الله عليه وسلم مخالطة مكّنتهم من معرفة الحوادث التي نزلت فيها آيات القرآن، نستنتى من ذلك ابن عباس، فإنه لم يلازم النبي عليه الصلاة والسلام في شبابه. لوفاة النبي عليه الصلاة والسلام وهو في سن الثالثة عشرة أو قريب منها، لكنه استعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة، يأخذ عنهم ويروى لهم.